اللسانيات العربية والترجمة

عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

لا أحد منا يشك لحظة في أن الترجمة تعدّ عاملا من عوامل تنمية أية لغة وإثرائها وتطويرها تطويرا يجعلها خليقة باستمرار وجودها وذات قدرة حركية وتفاعلها لمواكبة عصرها وفرض نفسها للاستعمال في شتى مجالات التعبير والإعلام والتواصل.

كانت الترجمة منذ عهد بعيد عونا كبيرا على إنماء اللغة العربية وأن العرب قد ترجموا أول ما ترجموا ما لم يكن عندهم معروفا أو واسع المعرفة. "ولم تنطلق الترجمة انطلاقتها الجادة إلا على عهد المنصور الذي شجع المترجمين وأجزل لهم في العطاء، وازدهرت في عهد الرشيد، لكنها لم تبلغ ذروتها إلاّ في عصر المأمون الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء دار الحكمة ببغداد واستقدام علماء وباحثين أجانب عن العروبة والدين ليؤجرهم ويغريهم ماديا ومعنويا لترجمة ما كان شائعا من معارف ذلك العصر في الإغريق وبلاد فارس والهند"[1].

وبفضل عمليات الترجمة المتتالية من لغة أجنبية أضحت اللغة العربية تزخر بمصطلحات علمية غزيرة تجاوبت معها الثقافة العلمية الجديدة في مختلف

الحواضر العربية ومراكزها الثقافية التي كانت تمثل الرقي الزاهي في ذلك العهد.

ومما هو جليّ لنا أن اللغة العربية ما كان بوسعها أن تسع تلك المعارف للتعبير عنها بوساطة تلك الثروة المترجمة إليها لو لم تكن مستعدة لاستيعابها وتوظيفها توظيفا يتلاءم مع استعمالها الأجنبي الأصلي، وفي هذا المعنى يقول العلامة نولدكه "إن من الخطأ الشائع أن نظن أن العربية فقيرة لا تصلح لبحث الأمور المعنوية، فعلى العكس يندر أن نجد لغة أخرى كاللغة العربية تصلح لأن تكون وسيلة عن الفلسفة القديمة وأصول حكمة الأولين"[2].

ومما يؤسف له أن هذه الترجمة ما لبثت أن خمدت شيئا فشيئا بعدما استوعب العرب النظريات العلمية القديمة، وكان علينا أن ننتظر عصر النهضة لتنشط الترجمة من جديد، إلا أن هذه الترجمة العصرية لم تنح منحى سابقتها من حيث الأغراض والمواضيع المترجمة، حيث احتفلت احتفالا واسعا بشتى الحقول الأدبية والفنية والعلمية[3].

ومما يحمد للعرب القدماء أنهم فرّقوا منذ الوهلة الأولى تفريقا منهجيا واضحا بين الترجمة، والتعريب، والدخيل معتبرين هذه الأصناف الثلاثة "ليست بأقل أهمية من عوامل الاشتقاق والقياس والنحت والقلب والإبدال في إنماء اللغة العربية"[4].

ولعل لإشكالية المطروحة في المصطلحات اللسانية العربية لها جذور خلفية موضوعية،ذلك أن منشأ الدرس اللغوي عند العرب منشأ لا يشك في أصالته إلا قاصر في الموضوع، بمعنى أن المصطلحات التأسيسية في اللسانيات العربية منبثقة من ذات اللغة نفسها، والكل يعلم أن المترجمين العرب القدماء لم يحتفلوا

بادئ ذي بدء أي احتفال بترجمة الفنون والآداب وعلوم اللغة، وما ظهر من ترجمات عرضية ACCIDENTELLE في كتب غير لغوية لمصطلحات لسانية جاء بعد ازدهار الدرس اللغوي العربي وتطوره واكتمال مصطلحاته.

وممّا هو مقرّب إلى الأذهان أن الترجمة خارج تخصصات علمية وتكنولوجية صرفٍ أعوص وأحرن، ولذا أقر العلماء والفقهاء منذ القديم أنه لا وجه "لقول من يحيز قراءة القرآن في صلاته بالفارسية، لأن الفارسية ترجمة غير معجزة، وإنما أمر الله -جلّ ثناؤه- بقراءة القرآن العربي المعجز، ولو جازت القراءة بالترجمة الفارسية لكانت كتب التفسير والمصنفات في معاني القرآن باللفظ العربي أولى بجواز الصلاة بها، وهذا لا يقوله أحد"[5].

ومما نعتقده أن المترجم ينبغي ألا يكون أقل ضلاعة وإلماما في اللغة المترجم إليها من معرفته للغة المترجم منها خاصة في المجال الفني والجمالي والأدبي واللساني الذي غالبا ما تقابله ترجمة يضبطها السياق العام والدلالات القريبة أكثر مما تقابله ترجمة حرفية، ولذلك كان فرديناندي سوسور عظيما حين أشار، وهو يتحدث عن "مكانة اللغة في وقائع اللسان" بقوله: "يجب الملاحظة هنا أننا عرّفنا أشياء لا كلمات، هذا وليس لثبوت التمييز من أن يخشى بعض المصطلحات الغامضة التي لا تتطابق بين لغة وأخرى ومن هنا فإن SPRACHE في اللغة الألمانية تعني "اللسان" كما تعني "اللغة" وREDE تطابق إلى حد ما "الكلام" غير أنها تزيد على الكلام المعني الخاص "للخطاب"، وفي اللاتينية أن كلمة SERMO تعني هي الأخرى"لساناً" و"كلاماً" في حين أن كلمة LINGUA تعني اللغة فحسب...إنه ليس هناك من كلمة تنطبق تماما ولا كليا من أحد المفاهيم التي

ألمحنا إليها سابقا، وهكذا فإن كل تعريف لكلمة ما باطل، كما أن المنهج الذي ينطلق من الكلمات لتحديد الأشياء لهو خاطئ"[6].

وفي تقديرنا أن الصعوبة الأساسية لا تكمن مبدئيا خلال عملية الترجمة في مدلول واحد له دوال صوتية متعددة كما نجد هذه الظاهرة في اللغة العربية بشكل خاص، حيث يوجد فيها مثلا خمسون ومائة اسم للأسد، وللحية مائتا اسم بل ذكر ابن خالوية أنه جمع للأسد خمسمائة اسم، بينما ذكر الأصمعي أنه حفظ للحجر سبعين اسما[7]...وإنما تكمن في ثقافة المترجم ودربته وذكائه وتقديره وضلاعته خاصة في اللغة المترجم إليها، علاوة على مدى تخصصه من ضعفه أو عدمه فيه نهائيا، إذ ليس هناك واحدا أو اثنان ممن يتطفلون على ترجمة مصطلحات لا قبل لتخصصهم الأصلي صلة بها، ولذا فإن قول بعض الباحثات (الأستاذة بوحديبة للّوشة)" يجد المترجم نفسه أمام صعوبات بشأن الكلمات التي ترتبط بميدان التحليل النفسي والتي لا وجود لها في القاموس الفرنسي العربي"[8] متسائلة "كيف نترجم إذًا هذه التصورات حينما تزودنا اللغة العربية بثلاث إلى خمس كلمات، في حين أن أيا منها لا يقابل تماما معنى الكلمة المقصودة"[9].غير مؤسس لدينا، والاتجاه الأنسب في هذا المضمار ما ذكره جورج مونان: "لكي نترجم يجب ألا نكتفي بمعرفة الكلمات، بل يجب أن نعرف الأشياء التي يتحدث عنها النص لترجمتها"[10]، ومع ذلك فإن الترجمة ستظل عملية سياقية إن لم أقل عملية تقريبية، لأنه يستحيل أن يطمح مترجم في فبركة نص يرقى إلى النص الأصلي، أي إذا كانت الترجمة رائعة إلى درجة أنها تنسينا نصها الأصلي فإن هذه الترجمة ربما لا تكون وفية كل الوفاء، وستكون على حساب إهمال أو التضحية بجزئيات أخرى، وهو ما عبر عنه جورج موتان في قوله الشهير:

"الترجمات كالنساء، إذا كنّ جميلات فإنهن لن يكن وفيات، وإذا كن وفيات فإنهم لسن جميلات"[11].

والرؤية السابقة نفسها يتقاسمها معنا الأستاذ نصر الدين خليل حين ألمح إلى أن الباحثين يكادون يتفقون "على قضية أساسية، وهي أنه لا توجد نظرية مضبوطة ومدققة في الترجمة، وإنما هناك اجتهادات تنظيرية في هذا المجال"[12] مضيفا القول: "ومن هنا، فإن مشروع القراءة الألسنية هو أن تعيد النظر من جديد في الآليات والوظائف التي توجه اللغة بكل مستوياتها"[13]، مشيرا إلى استحالة النظام اللغوي مع اللغات الأخرى التي تؤلف في مجملها اللسان البشري، داعما قوله بكل من لمسليف الذي كان يرى أن دلالة اللغة تقوم على نمط خاص من التقاطعات التي تختلف من لغة إلى لغة أخرى، وجورج مونان الذي نص على أن "اللسانيات لا تتعامل مع الترجمة كقوانين اجرائية ينبغي أن يحترمها النص المترجم من حيث مستويات اللغة المعجمية والنحوية والمورفولوجية والصوتية والأسلوبية التي يخضع لها النص الأصل، وإنما غاية اللسانيات هو طرح المشكلات اللسانية المتعلقة بالترجمة عند الانتقال من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف"[14].وأحسب أن هذا الإشكال في تباين المصطلحات سيبقى سائدا مهما وفّرت الوسائل الآلية لذلك، مادمنا نجد أنفسنا أمام آلاف من اللغات لا يستطيع عقل بشري ولا آلي هضمها واستيعابها في الوقت نفسه، وهو مجبر على التعبير بلغة واحدة، وخطاب واحد، وما دمنا عاجزين عن إدراك كنه ماهية اللسان البشري، أو كما قال دي سوسور: "إن الكل الشمولي للسان لا يدرك، وذلك لكونه غير متماثل"[15].

وحتى نظفر بالكل الشمولي للسان التي لا تدرك ماهيته، ليس فقط لأنه غير متماثل NON ISOMORPHE ولكن لاستحالة جمع كل التكلمات البشرية، فإن المصطلحات اللسانية المنقولة من لغاتها الأصل إلى اللسانيات العربية الناشئة كثيرا ما نفّرت المقبلين عليها أو الموجّهين إليها من طلبة وباحثين مبتدئين، فالباحث في هذه اللسانيات يجد نفسه أحيانا أمام جملة من المصطلحات لا تعني في بداية أمرها ونهايته إلا مصطلحا واحدا يعينه، وربما وجد نفسه أمْا خضم متراكم من المصطلحات المتضاربة وحتى المتناقضة، حيث ما تفيده لدى هذا اللساني العربي في المشرق أو المغرب أو حتى مستوى بلد واحد أو جامعة واحدة تفيد ضده أو غيره لدى لساني عربي آخر.

ودون أن ندخل في الأسباب النفسية والخارجية والتي لا تغيب كلها عن اللسانيين العرب المحدثين، فإننا ننادي من على هذا المنبر العلمي المعنيين بالتعاون ونكران الذات وتنظيم ملتقيات جامعية عربية لتدارس هذا الداء القاموسي المتعدد الذي لا يثري المادة اللسانية، ولا يطور اللغة العربية بقدر ما يعمل على تفريغها العلمي الواعد الهادف، ويجعل من هذه الاشكالية مبررا علميا ومنهجيا لتعاطي مصطلحات لسانية أجنبية كبديل لما يترجم غامضة تارة، ومتضاربة تارة أخرى إن ما أشرنا إليه أعلاه لا يحتاج لتبليغه إلى أية فلسفة كلامية أو جدل منطقي من نوع خاص، لأنها وقائع لسانية عربية مطروحة يعيش معاناتها كل من مارس ويمارس التعامل مع هذا الموضوع.

إذا رجعنا إلى دي سوسور، فإننا نجده يقسّم مفاهيمه الخمسة: Le langage, la langue, la parole, la synchronie, la diachronie حسب الشكل التالي[16]:

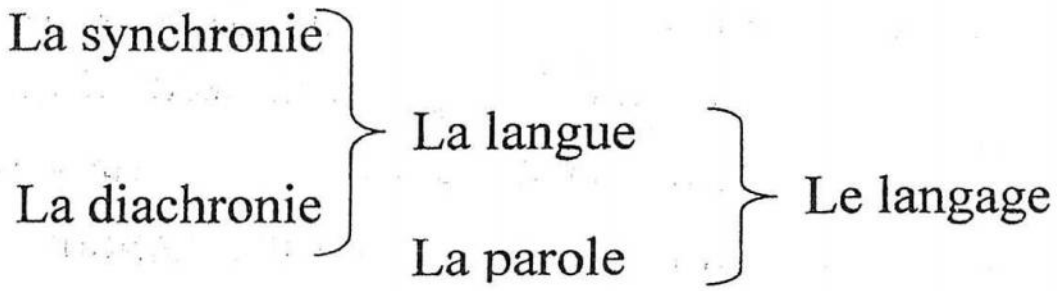

وهذا التقسيم على هذا النحو نجده مؤكدا في بعض الدراسات المعمقة التي اهتمت بدراسة دي سوسور وكتابه الموسوم أعلاه[17]، غير أن النسخة العربية التي بين يدي ترسم هذه التقسيمات على الشكل التالي:

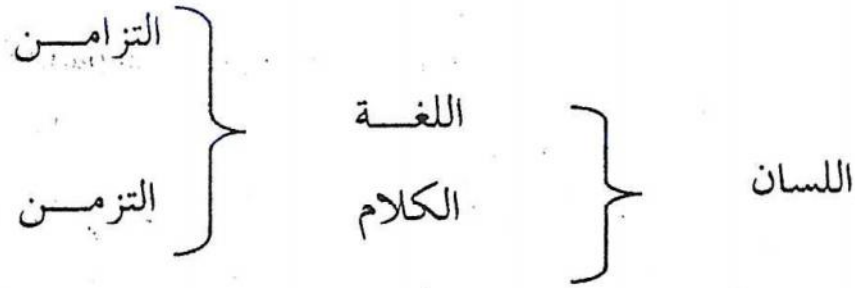

وتبعا لهذا التقسيم الأخير، فإن كل ما نفهمه من النسخ الفرنسية أو اللغات الأجنبية الأخرى باللغة، واللسان، نفهمه في هذه النسخة العربية باللسان واللغة"[18].

وما ألمح إليه أعلاه خطورة يجب أن ننتبه إليها كلما وُجِهنا في مصدر عربي مترجم بمصطلحات لسانية من هذا القبيل، مع يقيننا بأن اللسانيات العربية المعاصرة التي لا تبرح غائبة إلى إشعار آخر، لا تملك مصطلحات واضحة تعبر

بها عن مثل هذه الفروق الدقيقة، "وحتى القواميس العربية التي أنجزت خصيصا في المصطلحات اللسانية تضاربت في هذه المفاهيم، مثال ذلك أن "معجم اللسانية" الذي ألفه الدكتور بسام بركة لتوضيح هذه المصطلحات اللسانية متضاربة في ترجمته LANGUE وLANGAGE، لأن LANGUE عنده: لسان، لغة، وLANGAGE عنده: لغة، كلام[19].ثم لا ندري من أين أتى بهذه "اللسانية" معنى ومصطلحا حتى وإن كنا نتفق معه في ترجمة LANGAGE إلى لغة وكلام بعض الاتفاق، حين ننظر إلى LANGAGE تظرة تواصلية"[20].

وعلى الرغم من أن دي سوسور قسّم اللغة ،LE LANGAGE وليس اللسان ، LA LANGUE إلى لسان وكلام "فإن الغموض في مصطلحاتنا اللسانية تظل سائدة عندنا في اللغويات العربية الحديثة"[21]، فحين يعنون دي سوسور –مثلا– فصله الرابع بعنوان: "Linguistique de la langue et la linguistique de la parole " فإنه من الغموض بمكان أن نترجم "لسانيات اللسان ولسانيات الكلام" على الرغم من صحة الشق الثاني من الترجمة، بل من المعقول أن نقول في الشق الأول "لسانيات اللغة"، وهنا نقع في عكس الحقيقة العلمية التي توخاها الرجل من تقسيمه الثلاثي السابق"[22].

وإذا ما قدر لك أن تتصفح إحدى المجلات العربية الاكادمية من أجل الاطلاع على بعض المواضيع اللسانية المغربة بالنقد اللساني العربي الحديث مثلا، وبإشراف أشهر اللسانيين العرب المحدثين الذين يعدّون مصادر مأمونة ومأنوسة للباحثين، فإنك لتجد نفسك مضللا بمصطلحات غريبة تفردت بمفاهيم بعيدة عما تعنيه مداليلها بالنسبة إلى لغتها الاصل وعلومها اللغوية،[23] وإليك عينات منها:

المصطلح	ترجمته	المشهور
ALTERNANCE.	تـــداول	تناوب، تعاقب
LANGUE.	لـغـــة	لـســـان
LANGAGE.	كـــلام	لـــغـــة
PAROLE.	عـبـارة	كـــلام

وهذه المصطلحات بالنسبة لأصحابها مستقرة وليست متأرجحة، أما ما هو متأرجح منها فغزير مثل:

المصطلح	ترجمته	المشهور
APPROCHE.	مـقـاربـة	صـحـيـح
ASPECT DU RECIT.	مستويات الرؤية	مظهر الحكاية
CHAMP SEMANTIQUE.	حـقـل دلالي	صـحـيـح
CODE.	سـنـة	سَـنَـن
CATEGORIE.	مـقـولات	فصائل، فئات
INDICE.	وظيفة علامية	مؤشر لشيء آخر (مثل السحاب بالنسبة للمطر)
POETIQUE.	بـوتيـك	شـعـريـة
SEMANTIQUE.	سـيميـاء	علم الدلالـة

ويدلنا هذا المصدر على التباين الشائع والمستقر والمؤرجح بين كل باحث لساني وآخر، ومما لا يقبل منه إطلاقا أن نترجم مثلا: ASPET DU RECIT.بـ

"مستويات الرؤية" التي هي شيء آخر، وأن نترجم CODE، بـــ "السنة" بدل القانون أو السَّنَن إحالة على أول عنوان في فقه اللغة العربية لأحمد ابن فارس الذي سمى كتابه "الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها"، ويجوز لنا أن نقول فيها: سَنَن بفتحتين وسُنُن بضمتين، وسُنَن بضم السين وفتح النون، والسنن لغة هو الوجه من الأرض، والطريق من قولهم: "فلان على سنن واحد أي طريق والسنة تعني كذلك الطريق، وكذلك متقاطعة دلاليا مع السيرة التي قد تكون حميدة وقد تكون دميمة.

ومما لا يزال متأرجحا تأرجحا شديدا مصطلح "STRUCTURALISME" فريمون طحان يسميها "بنيانية"، ويسميها حسين الواد "هيكلية"، ويطلق عليها حمادي صمود "البنيوية"، ويدعوها صلاح فضل "بنائية" بينما يلقبها عبد السلام المسدي "هيكلية"، ويطلق حسين الواد على السياق SYNTAGME والمعروف عندنا أن هذا المصطلح يقابل كل تركيب لغوي، أو كما قال دي سوسور[24].

(كل تلاصق للمفردات في السلسلة الكلامية) toute combinaisons dans la chaine perlée.

(كل تلاصق للوحدات الدالة) toute combinaisons de monème.

في حين أن حمادي صمود يطلق عليه "مجال التوزيع" وهو إطلاق بعيد عن أصله وعن اللغة الهدف أي المترجم إليها، لأن دلالة "مجال التوزيع" وهي: CHAMP DE DISTRIBUTION بالنسبة لمجالات صوتية ودلالية وأسلوبية...شيء آخر تماما.

ومن هذه الكلمات LA SYNTAXE فيسميها البعض "النظم"، والبعض الآخر "علم التركيب" بينما يطلقون، علم الصيغ" على المورفولوجيا وهو مصطلح

مأنوس، لكن البعض الآخر قد يسميه "علم الصرف" مثلما يسمى La syntaxe علم النحو.

ويمكن أن نعطي مسحا آخر للمصطلحات اللسانية التي ترجمها الأستاذان سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر من خلال ترجمتهما "علم اللغة" لدانييل مانيس لنرى توجها آخر تارة قد يتقاطع مع ما سبق الإشارة إليه، ومرة يتوازى معها ومع غيرها من المصطلحات المشهورة أو المرجحة[26].

المصطلح	المترجم	المشهور أو المرجح
DIACHRONIQUE.	التزامنية	الزمنية
SYNCHRONIQUE.	التزامنية أو التاريخية	التزامنية
LANGAGE.	اللسان	اللغة
CORPUS.	نصية	مدونة
COMPETENCE.	قدرة	كفاءة
PERFORMENCE.	انجاز	أداة
SCHEMA.	المختزل	تخطيط بياني
ARBITRAIRE.	الاتفاقية	اعتباطية
ISOMORPHISME.	مشاكلة	تشاكل، تماثل
.FONCTION DEMACRATIVE.	وظيفة تقطيعية	وظيفة تحديدية

ومن الممكن أن نقف على مسح آخر لقاموس المصطلحات اللسانية التي اعتمد عليها الدكتور نجيب غزاوي الذي ترجم "علم اللغة في القرن العشرين" لجورج مونان لنقف على حقائق مضاعفة تؤكد لنا المسار العلمي الذي توجد عليه اللسانيات العربية الحديثة[27]

المصطلح	المترجم	المشهور أو المرجح
LE CANAL.	المسار	القناة
CLASSEMENT GENETIQUE.	تصنيف تاريخي	تصنيف وراثي أو تكويني
CODE.	نظام	سنن، قـــانون
COMMUNICATION.	تفاهم–اتصال	تبليغ، اتصال، تواصل
COMUTATION.	تبادل	إبدال، استبدال
FONCTION REFERENTIELLE.	وظيفة إشارية	وظيفة مرجعية
PERTINENCE.	تمايز وظيفي	ملاءمة
PERTINET.	تمييزي	ملائم، مطابق
PHILOLOGIE.	علم تحقيق النصوص	فقه اللغة (الفقلغة)
SIGNE.	رمز لغوي	علامة أو إشارة

ولعلنا لسنا بحاجة إلى المزيد من إثبات أمثلة ونماذج أخرى، فالعينات التي أوردناها تبدو لنا كافية، وتعبّر عن نفسها على مدى التضاربات الملاحظة في استعمال هذه المصطلحات اللسانية عندنا والتي لم نوفّق حتى الآن في الحد من تباينها بالتنسيق على التقريب بينها.

وأحسب أنه آن الأوان لتوحيد هذه المصطلحات في اللسانيات العربية المعاصرة وتخزينها في أقراص مضغوطة وجعلها في متناول الجامعات العربية

ومراكز البحث، ولن نصل إلى أية نتيجة مرضية في هذا الشأن إلا بمراعاة معطيات متكاملة:

1- أن يأخذ المستوى الخلفي للتراث اللساني العربي باهتمام بالغ.

2- أن يتوافر تنسيق جامع بين كل الفاعلين في هذا الميدان.

3- أن يشرك لسانيون في اللغات الأجنبية في جهد مشترك، وخاصة ممن لهم بصمات جيدة في الترجمة.

4- أن يوكل إلى لجنة عربية مختصة مراقبة المطبوعات الجامعية بغية الإرشاد والتقويم لبعض المصطلحات اللغوية الشاردة.

5- تشجيع التكامل والتنسيق وتبادل المعطيات العلمية بين القطاعات العربية للتعليم العالي هيئات وأفرادا.

6- التكثيف بالتناوب من الملتقيات اللسانية الأكاديمية والتعليمية والتربوية.

7- تشجيع اللسانيين المختصين في تأليف المعاجم اللسانية الأحادية والمزدوجة مع مراعاة معطيات التقارب وتوسيع التشاور العلمي الجاد إزاء بعض الإشكالات العالقة.

الإحالة ومصادرها:

1)- العربية بين الطبع والتطبيع ص: 163، عبد الجليل مرتاض د.م.ج. 1993، الجزائر.

2)- الآداب السامية ص135، محمد عطية الابراشي ط84/4 دار الحداثة، بيروت.

3)- راجع العربية بين الطبع والتطبيع ص165.

4)- نفسه ص165.

5)- الصاحبي في فقة اللغة وسنن العرب في كلامها ص: 62 أحمد بن فارس. تحقيق د.مصطفى الشويمي ط: 1963 مؤسسة أ.بدران بيروت.

6)- محاضرات في الألسنية العامة ص: 25-26 ف.دي سوسور ترجمة: يوسف غازي، مجيد النصر ط1984، دار نعمان للثقافة بيروت.

7)- راجع فقه اللغة لابن فارس ص43-44.

8)- AL-MUTARGIM, P : 33 N°1, laboratoire didactique de la traduction et multiliguisme edition der elgharb janvier – juin 2001.

9)- Le précédent P : 33.

10)- Le précédent P : 33.

11)- المرجع السابق ص: 39.

12)- نفسه ص: 115.

13)- نفسه ص: 115.

14)- نفسه ص: 116.

15)- محاضرات في الألسنية العام ص: 33.

16)- Cours de linguistique générale P : 156 F.DE SAUSSURE ENAG EDITION 1990 ALGER.

17)- Lire aujourd'hui (C.L.G) P : 21 carol sanders classique hachette, édition 1978.

18)- اللغة والتواصل ص: 26-27 عبد الجليل مرتاض ط2000/1 دار هومـــة-الجزائر.

19)- انظر معجم اللسانية ص: 122 د.بسـام بركة منشورات جـرّوس ط 1985/1 طرابلس – لبنان.

20)- اللغة والتواصل ص: 27-28.

21)- نفسه ص: 28.

22)- نفسه ص: 28.

23)- الموقف الادبي ص: 194 – 201 (عدد خاص باللسانيات) العددان: 135 – 1982/136.

24)- Dictionnaire de linguistique P : 478 J.dubois librairie larousse paris VI.

25)- نفسه ص: 478.

26)- انظر الموقف الأدبي أعلاه ص: 209-226.

27)- راجع: علم اللغة في القرن العشرين لجورج مونان ترجمة د.نجيب غزاوي، وزارة التعليم العالي السورية.